

التاريخ الأهلجي والتاريخ الرسمي

دراسة في أهمية المصدر الشفوي

د. سعود ضاهر

مدخل

ما زال بعض المؤرخين يرفضون استخدام الوثائق الشفوية ولا يدرجوها في مكتبة الدراسات العلمية، بل يعتبرونها مراجع قليلة الأهمية فلا يجوز الاعتماد عليها إلا في حالة انعدام المصدر المكتوب. ومثل هذه المنهجية تقود أحياناً إلى إهمال وثائق أساسية لصالح وثائق أقل أهمية فقط لوجود الفارق بين المصدر الشفوي والمصدر المكتوب، وهي تقود بالضرورة إلى قطع الطريق أمام تدوين الكثير من الحقائق التاريخية الجديدة التي يتم الكشف عنها أثناء المقابلات الشخصية، ثم تسجيلها أو تدوينها فتغدو وثائق مكتوبة توضع في متناول جميع الباحثين.

إن من يعتقد أن الوثائق الشفوية لا تصلح كمستندات علمية لدراسة التطور الاجتماعي، يغرب عن باله أن الوثائق المكتوبة كانت، أيضاً، روايات متناقلة قبل أن تدون. لذا فالوثائق المكتوبة ليست أكثر أهمية من الوثائق الشفوية، ولا تمتاز عنها إلا بالتدوين. وإذا كانت هناك ضوابط منهجية كثيرة لإثبات أصالة النص المكتوب وخلوه من الدسّ والتزوير، فإن من السهل وضع ضوابط مماثلة لإثبات أصالة المصدر الشفوي قبل تسجيله بواسطة آلات التسجيل وأجهزة التلفزيون والأفلام السينمائية بالإضافة إلى المقابلات الصحفية. فليس هنالك أي فارق جذري بين النص المكتوب والمصدر الشفوي الذي يصار إلى تدوينه بقلم صاحبه أو بصوته أو استناداً إلى راوي ذلك المصدر الذي تنطبق عليه قواعد الدقة المنهجية لمن يؤخذ بروايته.

المقابلة الشفوية توضح أبعاداً إنسانية نفسية ومباشرة لا يمكن الوصول إليها من خلال النص المكتوب. فالمؤرخ، في هذه الحالة، يعيش الأحداث التاريخية التي يدرسها عبر بعض المشاركين فيها، وله إمكانية الحوار المباشر معهم واستيضاحهم جوانب كثيرة عن الماضي الذي شاركوا في صنعه.

كذلك يستفيد المؤرخ مباشرة من الانطباع العام الذي تركته الأحداث اللاحقة في نفس الفرد المشارك في صنع الحدث، مما يساهم مباشرة في ضبط الاستنتاجات العلمية التي يتوصل إليها الباحث، وذلك بالكشف عن حقيقة الأهداف التي توخاها أولئك الناس عند مشاركتهم الفعالة في كتابة تاريخهم بأنفسهم عبر نضالاتهم اليومية. وهكذا تبرز أهمية المصدر الشفوي كمصدر هام في التوثيق العلمي للكتابة التاريخية من جهة، وفي صياغة الإيضاحات والاستنتاجات حول مرحلة تاريخية معينة. ويكتسب المصدر الشفوي أهميته، أيضاً، من تنوع المقابلات وغناها الوثائقي، وموقع الذين تجري محاورتهم في الحدث التاريخي المدروس.

لكن المصدر الشفوي ليس في الواقع سوى حوار الفرد مع ماضيه الشخصي. لذا لا تجوز المبالغة في إبراز دور الفرد، مهما علت مرتبته الاجتماعية، أو بناء استنتاجات عامة على أساس آرائه الخاصة. فالفرد لا يمكن أن يكون صانعاً للحدث التاريخي، بل مشاركاً فيه. وإذا كان من التعسف المطلق إسقاط دور الفرد في صنع الحدث التاريخي، فإن من الخطأ البالغ تضخيم ذلك الدور على حساب الظروف الموضوعية (الاقتصادية - الاجتماعية) التي تحدد مسار التطور. فرفض إسقاط النص الشفوي كوثيقة علمية لدراسة التطور الاجتماعي، لا يمكن أن يقابله اعتماد ذلك النص وحده لإبراز التطور. والمرجع الصالح للدراسة هو المؤرخ نفسه الذي يحلل كلاً من المصدر الشفوي والنص المكتوب ويبني صحة فرضياته على أساس المعلومات التاريخية التي يستقيها من مصادر ومراجع متنوعة. والمؤرخ قادر أيضاً، على ضبط المقابلة الشفوية في نص مكتوب أو مسجل، فيصبح وثيقة علمية سهلة الاستخدام. فليس هناك نص وثائقي يمكن استخدامه، وآخر لا يجوز استخدامه، بل هناك مؤرخ عالم يستفيد من كل الوثائق، المكتوبة والشفوية، لإبراز التطور الاجتماعي.

موقع المصدر الشفوي في الوثائق التاريخية

يبدو الانطباع المنهجي السائد أن المصدر الشفوي لا يصلح إلا لدراسة المجتمعات التي لم تعرف التدوين. وعلى أساس هذه الخلفية المنهجية يرفض بعض المؤرخين اعتماد المصدر الشفوي إلى جانب النص المكتوب. فمع وجود النص المكتوب تنعدم الحاجة، في نظرهم، إلى المصدر الشفوي، ومثل هذا التعسف المنهجي يقود إلى جملة مواقف منها:

- إن المصدر الشفوي لا يصلح إلا لدراسة المجتمعات المتخلفة أو البدائية أو النامية مع الرفض القاطع لاستخدام هذا النص في وثائق البلدان المتطورة. لكن الدراسات العلمية تؤكد أن المصدر الشفوي استخدم في البلدان المتطورة منذ مطلع القرن العشرين، خاصة في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وفي الدول الاسكندنافية أكثر من سواها.

- إن المصدر الشفوي لا ينظر إليه كمصدر وثائقي قائم بذاته بل كمتعمق لمصدر مكتوب ولو كان أدنى منه أهمية. لكن هناك الكثير من المقابلات التي تكشف حقائق تاريخية جديدة تنشر للمرة الأولى ويتم تدوينها على هذا الأساس. فمن التعسف المنهجي ربط المصدر الشفوي دوماً بنص مكتوب في محاولة الإيجاد ذريعة اعتباطية تبرر استخدام المصدر الشفوي.

- إن منهجية المصدر الشفوي ذات أهمية فائقة لمعرفة أفضل بالمجتمعات البشرية على اختلاف درجات تطورها وتنوع نشاط القوى البشرية في داخلها، سواء في الصحارى أو الأرياف أو المدن. وهذه المنهجية تقود بالضرورة إلى إبراز وثائق غنية جداً ذات صلة مباشرة بكافة جوانب التطور الاجتماعي.

فالمصدر الشفوي يصلح لمعرفة نشاط مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية، وهي معرفة ذات قيمة وثائقية نادرة لأنها تكشف حوار الناس المباشر مع ماضيهم القريب على ضوء ما آلت إليه التطورات الاجتماعية اللاحقة، أي الحوار المباشر بين الماضي القريب والحاضر المعاش. وإذا كان بعض المؤرخين يأخذون على هذا الحوار انشداد الناس إلى قراءة الماضي على ضوء الحاضر، أي تبديل مستمر في النظرة إلى الماضي من وجهة ذاتية متقلبة، فإن النص المكتوب لا يمنع تلك الذاتية بل يؤكداه، وإن المؤرخ نفسه يضطر أحياناً إلى إسقاط بعض الفرضيات التي بنى عليها كتابات سابقة على ضوء وثائق جديدة تقدم معرفة أفضل بالتطور الاجتماعي.

يتضح من ذلك أن المصدر الشفوي ضرورة علمية لفهم الحقائق التاريخية. ومن يؤكد أصالة المصدر هو المؤرخ نفسه، سواء كان المصدر مكتوباً أم شفوياً. للنص أهمية وثائقية بحد ذاتها، لكن المؤرخ يجعل منه قيمة معرفية في إطار التحليل الاجتماعي. فليس هناك مصدر أساسي ومصدر ثانوي بالمطلق، بل هناك نص تاريخي يتم توظيفه في إطار دراسة اجتماعية تبرز من خلالها عملية التطور الاجتماعي كعملية محددة في الزمان والمكان ولها قوانين موضوعية يمكن إبرازها عبر فرضيات علمية مستندة إلى حقائق تاريخية مؤكدة. وهذه الحقائق موجودة في ما تركه السلف من أعمال ومخطوطات وتسجيلات وعادات وتقاليد وغيرها.

فالماضي موجود في الوثائق الدالة عليه كما أن بعضه مستمر عبر العادات والتقاليد، وممارسة الطقوس الدينية، والفنون الشعبية، والقصص الشعبي، والآلات المتوارثة... وتسجيل ذاكرة المجتمعات يعتبر من

الأعمال الهامة التي تحفظ هذه الذاكرة من الاندثار والضياع، وتجعل دراسة الماضي ممكنة وعلمية. والمصدر الشفوي يساهم بعمق في حفظ تلك الذاكرة عندما يحاورها في مرحلة النشاط والإبداع لا في مرحلة الهرم والشيخوخة.

أهمية المصدر الشفوي لدراسة تاريخ المجتمعات التي خضعت للاستعمار

يؤكد هيغل في كتابه «دروس في فلسفة التاريخ» على المقولة التالية: «إن الشعوب التي أسست دولاً هي وحدها التي تستحق الملاحظة»، وهي مقولة تتضمن نفيًا مباشراً للشعوب التي عجزت عن بناء دول ثابتة وقادرة على الاستمرار. وقد استخدمت هذه النظرية في القرن التاسع عشر، قرن الاستعمار المباشر، في ترسيخ نظرية الغالب على المغلوب، ومحو تاريخ المغلوب وإجباره على السير في الخط الحضاري الذي يرسمه له الغالب. ألم تدعي فرنسا أن الجزائر أرض فرنسية وأن الملوك الفرنسيين هم أجداد الشعب الجزائري، وأبطاله التاريخيون؟ ألم تجر إبادة الهنود الحمر في أميركا وفرض لغة وحضارة الغالب على المغلوبين، وطمس تاريخهم القديم؟ هذه الملاحظة تفسر جانباً هاماً من منهجية المدرسة التاريخية الأوروبية المنتصرة، والناشطة منذ الاكتشافات البحرية للسيطرة على العالم، وفرض النظام الرأسمالي على جميع مناطقه. وهذه المدرسة تشدد على الوثيقة أو النص المكتوب، وتهمل عمداً كل نص شفوي، أو ترفض الاستناد إليه إلا في الحالات النادرة.

إن تحليل هذه المنهجية يبرز الملاحظات التالية:

- إن النص المكتوب هو النص الرسمي الذي يصدره الغالب، ويخضع له المغلوب (مراسيم، قرارات، أوامر، دساتير...). ومجموع هذه النصوص تشكل المدخل الطبيعي لدراسة الأعمال التي قام بها الغالب، وليس التطور الاجتماعي الذي أصاب التجمعات المغلوبة. فالتطور ينبنى على الجذور السابقة أي ولادة الجديد من القديم حتى يتكامل فيفجره من الداخل. أما في حالة السيطرة الخارجية فهناك قطع للجذور وتشويه متعمد لعملية التطور الاجتماعي باتجاه تهميش المجتمع المغلوب، وقطع الطريق أمامه لمقاومة الغالب.

- إن النص المكتوب هو حوار الغالب مع نفسه منفرداً دون أي اعتبار للمغلوب. وتقدم مذكرات القادة العسكريين، ورجال السياسة، والمعتمدين، والرحالة، والمرسلين، والتجار وغيرهم، النموذج الواضح في هذا المجال. فهي تسجل فقط نظرة الغالب إلى المغلوب، أي الواقع الذي هو فيه، والمستقبل الذي يريده له. وكثيراً ما يتم تسجيل مواقع القوة في الشعوب المغلوبة عبر هذه المذكرات، لكن الهدف من ذلك ليس تنشيط تلك المواقع بل العمل الحثيث على ضربها وإزالة مقاومتها وتماسكها الداخلي.

فالمذكرات، هنا، ليست سوى وصف دقيق لواقع المغلوب في لحظة تحوله إلى تابع. فاقد القدرة على مقاومة الغالب.

- بالمقابل، كانت الشعوب المغلوبة تقبع في أمة شبه مطلقة لا ينقذها منها وجود بعض أبنائها المتعلمين في مدارس الإرساليات الأجنبية لأن معظمهم شكلوا ركائز متقدمة للتنفيذ الخارجي في المرحلة الاستعمارية. فالشعوب المغلوبة لا تتحاور ماضيها من خلال النص المدون إلا في المراكز المدنية الكبرى، خاصة في المؤسسات الدينية. وهذا الحوار في مرحلة الانحطاط التي سبقت الاستعمار المباشر، كان حواراً وحيد الجانب، أي حوار الماضي مع نفسه وعبر وثائقه من خلال بعض الكتب والنسخ، لأن عصر الإبداع العلمي كان قد انطوى منذ زمن بعيد. فالنص المكتوب لدى الشعوب المغلوبة هو نص الماضي، وليس الحاضر، أي أن تعبيره السياسي يمثل ماضي النهضة لا حاضر الإبداع العلمي. النص المكتوب كان نصاً تراثياً حضارياً أكثر منه نص جاهري مباشر. وكان المغلوب يستلهم التراث الحضاري ليقاوم به الاندفاع الاستعماري في القرن التاسع عشر. لذا سقط الفعل التراثي أمام الفعل الاستعماري المباشر، فطنى نص الغالب فترة زمنية طويلة على النص التراثي حتى استعاد المغلوب قدرته على مجابهة الغالب على أرض الواقع.

إن النص المكتوب، على اختلاف أشكاله (قرارات، مراسيم، مذكرات، تراث...) لا يعبر بصدق عن واقع الشعوب المغلوبة، بل عن ماضيها السحيق من جهة، وعن المستقبل الذي يرسمه لها الغالب من جهة أخرى. وهنا بالضبط تكمن أهمية المصدر الشفوي في دراسة تطور المجتمعات المغلوبة، خاصة بعد تحررها من الاستعمار المباشر، لأن المغلوب كان يفترق إلى المقومات الأساسية من أجل كتابة تاريخه بنفسه، وذلك لأسباب موضوعية منها:

- مرحلة الانحطاط التاريخية الطويلة التي مر فيها.
- انتشار الأمية بشكل واسع داخل جميع الفئات والطبقات الاجتماعية.
- خضوع هذه المجتمعات للسيطرة المباشرة، وما رافقها من أشكال القمع والاستبداد.
- فرض إرادة الغالب على المغلوب، وتحلي ذلك عبر مختلف القوانين والمراسيم...
- انحطاط المؤسسات العامة ومنها التعليمية، في طمس تاريخ الشعوب المغلوبة والتشديد على المرحلة الاستعمارية، واعتبارها عنصر إنهاض للمجتمعات المغلوبة.

- قطع الصلة بين هذه المجتمعات مع محيطها الطبيعي الذي يعتبر بمثابة الإطار التاريخي الضروري لفهم تاريخها القديم. فقد أحل الاستعمار المباشر أسلوب التجزئة وإقامة الكيانات السياسية الصغيرة مكان الوحدة

الجغرافية - التاريخية السابقة . وتحكمت إرادة الغالب في حاضر المغلوب وماضيه معاً، فسيطر مباشرة على جميع مقدرات الشعوب المغلوبة وربطها تبعياً بعجلة الرساميل الخارجية، كما حاول طمس تاريخ الشعوب المقهورة بالقطع بين الماضي والحاضر بحيث يأتي شعار النهضة على قاعدة ذلك القطع، أي إنهاض الشعوب المغلوبة على أساس البنى الاقتصادية - الاجتماعية لمرحلة السيطرة الاستعمارية المباشرة . وهكذا ينعدم حوار المجتمع مع ماضيه ليدخل في حوار مع ماضٍ قريب فُرض عليه فرضاً، ولم يشارك في صنعه، بل كان فاقد القدرة الموضوعية على المجابهة . فالنص المكتوب خلال هذه المرحلة هو أيضاً، وإلى حد بعيد، نص الغالب حتى لو كتب بأيدي محلية لا غبار على وطنيتها وصدق انتابها القومي .

إن المدلول العملي لمقولة هيجل، المشار إليها، أن النص المكتوب لدراسة الشعوب المغلوبة هو نص الغالب بالدرجة الأولى . وقد أمعن الغالب في التعسف والاضطهاد عندما هيمن على مقدرات الشعوب الخاضعة له، كما أمعن في تشويه تاريخها القديم والحديث . وعندما اضطروا إلى الخروج، ولو ظاهرياً من بعض المجتمعات، حمل معه الغالبية الساحقة من سجلات الشعوب المغلوبة ووضعها في أرشيف خاص لا يسمح بالاطلاع عليها إلا بعد فترة زمنية تتجاوز النصف قرن أحياناً . كما أن بعض السجلات لا زالت حكرًا على قلة ضئيلة من الباحثين الذين لا مجال للشك في ابتعادهم الكامل عن آلام شعوبهم وأمانهم . والدول الاستعمارية الحديثة (بريطانيا، فرنسا، إسبانيا، البرتغال...) تزعم أن أرشيفها الخاص ضماناً للسجلات التاريخية من الاندثار والتلف لأن بعض القوى الحاكمة لا تتورع عن حرقها . أما معظم وثائق الأرشيف العثماني، وهي وثائق بالغة الأهمية بالنسبة للمجتمعات العربية التي خضعت لها طيلة أربعمائة سنة، فلا زالت في الأكياس ولا يمكن الاطلاع على النزر اليسير منها إلا بعد صعوبات كثيرة أضيفت إليها صعوبة تبديل الكتابة العثمانية من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني .

إنَّ النص المكتوب في المجتمعات المغلوبة لا زال أسير رغبة الغالب بعد انقضاء سنوات طويلة على تحرر هذه المجتمعات . وهناك قبائل بدائية، لم تعرف التدوين بل سجلت تاريخها عبر ذاكرة الرواة كالتقاليد، والعادات القبلية الموروثة، حتى أن الطقوس الدينية نفسها كانت شفوية أكثر منها مكتوبة، لأن نسبة الأمية كانت مرتفعة جداً، ويتم حفظ الطقوس الدينية غيباً . وقد ساعمت بعض الحركات الدينية، كالوهابية والسوسية، في إيصال الوعي الديني لجماهير البدو في مرحلة صراعها مع السلطة المركزية العثمانية أو الغزو الاستعماري الأوروبي، فأنشأت مراكز خاصة «للأخوان» يتدربون فيها على أحوال القراءة والكتابة، والقيام ببعض الأعمال الزراعية والحرفية .

يتضح من ذلك أن المعرفة التاريخية بتطور المجتمعات المغلوبة، خاصة القبلية منها، ليست سهلة في ظل

غياب النص المكتوب. لذا يلعب المصدر الشفوي دوراً بالغ الأهمية في إبراز علاقة الماضي القريب لهذه المجتمعات القبلية بحاضرها المعاش، خاصة بعد اكتشاف النفط وتسويقه. فالمعرفة التاريخية بالماضي السحيق للقبائل، تكاد تكون مستحيلة بعد مرور الفترة الزمنية الطويلة على حياتها الصحراوية. فالأعراف والتقاليد القبلية حفظت السمات الأساسية لحياة البدو، لكن تجدد الإشارة إلى بعض المحاذير المنهجية في دراسة هذه السمات منها:

- إن القوى السياسية المسيطرة داخل القبائل كانت المصدر الوحيد لتشريع وتطبيق الأعراف القبلية المتوارثة، أي أن المعرفة التاريخية مقصورة على أوضاع القوى المسيطرة التي تفرض نفوذها على جماهير البدو.

- إن العلاقة السلطوية بين القبائل، وفي داخلها، سهلت عمل القوى الاستعمارية الخارجية في السيطرة على القبائل بعد أن استألت زعماءها بالمال والسلاح والألقاب. ولا بد من دراسة علمية دقيقة لطبيعة السلطة القبلية التي تجعل من زعيم القبيلة الناطق الرسمي باسمها، وتنعدم كل إمكانية موضوعية لمقاومة زعيم القبيلة من الداخل، كما تنعدم قدرة جماهير البدو على صنع تاريخها بيدها، لأن إرادة الزعيم هي المسيطرة دوماً.

- إن تاريخ القبائل، كما دون لاحقاً وحتى الآن، ليس سوى تاريخ زعماء القبائل. فذاكرة الجماهير القبلية، أي تاريخها غير المكتوب، يختزل إلى مجموعة الأعراف والتقاليد التي يناط أمر تنفيذها وتنفيذها بشيوخ القبائل دون سواهم. فالمعرفة التاريخية بتطور المجتمع القبلي، تكاد تكون مفقودة خارج ذاكرة القوى المسيطرة. والنص المدون، حتى الآن، هو نص رئيس القبيلة الذي تحكم بالنص المكتوب عبر علاقاته المباشرة مع السلطة المركزية وقراراتها، وبالمصدر الشفوي المتوارث في العادات والتقاليد القبلية.

- إن العلاقة بين القبائل محكومة، أيضاً، بالصراع على النفوذ بين الأسر المسيطرة. وهذا ما جعل الماضي القبلي يدور في إطار الصراع بين الأسر المسيطرة على حساب جماهير البدو. فالأيام المشهودة ليست سوى انتصار البطل القبلي الذي يُكرّس بمثابة انتصار للقبيلة كلها. والهزيمة تقاس أيضاً بنفس المقياس. فالفخر القبلي، والهزيمة القبلية هما، في نهاية كل تحليل علمي، اجتماعيان، أي يمكن تحليلهما على أساس الواقع القبلي المعاش، وتنعكس أبعادهما على كل أفراد القبائل، وليس على أبطالها فحسب.

- إن التقاليد القبلية المتوارثة هي، أيضاً، تقاليد سلطوية. فالكرم، مثلاً، لا يمكن أن يفهم إلا على ضوء شروطه المادية. ومن يمارس فعل الكرم عليه أن يمتلك الشروط المادية لذلك: المال والماشية والأشياء الأخرى. وملكية التصرف بهذه الأشياء كانت حكراً على شيوخ القبائل دون سواهم. أما كرم الأفراد العاديين، فيكاد يقتصر على بعض الأمثلة الصغيرة التي تذكر عرضاً في النصوص المدونة، والتي لا تقاس بالأعمال الكبيرة للقوى المسيطرة. فقدرة الأفراد العاديين على ممارسة الكرم مرهونة بقدرتهم على التصرف بالملكية الصغيرة التي

بحوزتهم، وهي ملكية تابعة أيضاً لزعيم القبيلة، وله حق التصرف بها ساعة يشاء.

- إن الموروث القبلي محكوم أيضاً بالقدرة على زيادة الانتاج، والسيطرة على مناطق وقبائل جديدة، مع السعي الدائم للحفاظ على قاعدة ثابتة وضرورية لممارسة السلطة، وما يرتبط بها من جاه ونفوذ وملكية وتصرف... فالصراع بين القبائل هو قبل كل شيء، صراع سياسي على الاستمرار في ممارسة السلطة والنفوذ وتوسيع رقعتها إلى مناطق وقبائل جديدة. وهكذا تندرج مسألة التحالفات القبلية في إطار الصراع السياسي على النفوذ. ولا يمكن أن يفهم العهد الشفوي الذي يصدره الشيوخ الأقوياء إلا بمثابة إلزام قسري لكل القوى الخاضعة له أو المتحالفة معه. فالوعد الشفوي تعبير عن مصالح يعتبرها الشيوخ الأقوياء قاعدة أساسية لممارسة النفوذ على قبائلهم وحلفائهم ضد القبائل المناوئة. وبالرغم من أن نص الوعد يبقى شفويّاً غير مكتوب، فإن زعيم القبيلة يتمسك بكل حرف فيه لأن الصدق صفة ضرورية للزعيم القبلي يقابلها الإخلال بالوعد الذي يؤدي إلى انفكاك القبائل عنه وبداية انهيار نفوذه داخل قبيلته.

- إن هنالك قبائل عديدة ارتبط تاريخها بمنطقة معينة خلال حقبة زمنية طويلة، ثم تفسخت إلى قبائل صغيرة أو بطون وأفخاذ، وزال نفوذها لأسباب متنوعة. وهذه الناحية تطال تاريخ معظم القبائل في حين أن النص المكتوب لا يدون إلا تاريخ القبائل المنتصرة التي استمرت حتى الآن، والتي تحاول سحب سيطرتها على ماضي المنطقة التي تحكمها. فالأسر القبلية الحاكمة اليوم في الجزيرة العربية مثلاً، تحاول ربط تاريخها بالأسر القبلية الأولى التي كانت تسيطر على الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام. كما أن النص المدون، كالأنساب مثلاً، قد يستخدم لتلفيق الواقع التاريخي، وإسقاط الحاضر المعاش على رواياته السابقة. لذا فالمصدر الشفوي المباشر يعطي للجواهر البدو وللغوى السلطوية القديمة التي اندثرت سيطرتها، إمكانية التعبير عن ماضيها القبلي دون تدخل مباشر من جانب القوى المسيطرة. ويلعب المؤرخ دوراً أساسياً في كتابة التاريخ العلمي للمجتمعات القبلية استناداً إلى روايات متنوعة وغنية، وليس من وجهة نظر الأسر المسيطرة فقط. ومع انتصار بعض القبائل بدعم مباشر من قوى الاستعمار الخارجي (آل سعود، آل الصباح، آل خليفة، آل قابوس...)، زالت سيطرة قبائل قوية عرفت بدورها السياسي الكبير في الجزيرة العربية (آل الرشيد مثلاً)، فالتاريخ القبلي المكتوب حتى الآن، هو تاريخ الأسر المسيطرة بعد الانتقال من السيطرة العثمانية إلى السيطرة الانكليزية. والرواية القبلية المدونة هي رواية القبيلة المنتصرة المدعومة برواية الخليف الانكليزي والمدونة في تقاريره الرسمية. لذا لا بد من التدقيق في ضبط الرواية القبلية الشفوية وتمحيصها قبل تدوينها وصولاً إلى كتابة تاريخ علمي للمجتمعات القبلية لأن رواية المنتصر هي دوماً متحيزة سواء كانت شفوية أم مدونة في نص مكتوب.

بعض الملاحظات المنهجية حول تدوين المصادر الشفوية

يلعب المصدر الشفوي دوراً أساسياً في فهم تطور المجتمعات، خاصة في المناطق التي لم تدون تاريخها حتى الآن، أو دونته من وجهة نظر المنتصر. وكان للمؤرخين العرب والمسلمين الباع الطولى في وضع قواعد علمية صارمة لتدوين الرواية التاريخية بحيث تأتي أقرب ما تكون إلى الدقة. ويستفيد المؤرخ المعاصر من المنهج النقدي للرواية التاريخية كما وضعه هؤلاء المؤرخون مع السعي الجاد لتطوير ذلك المنهج بحيث يشمل كافة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والتربوية وغيرها.

فالروايات الشفوية كثيرة جداً ومتنوعة. والرواية يغلب عليها الزيادة أو البتر، خاصة إذا كانت متوارثة وقديمة، لأن الآباء كانوا يحرصون على إيصال مفاخر القبيلة وعاداتها وتقاليدها إلى أبنائهم. كما أن عزلة القبائل داخل الصحارى تجعل من الرواية عنصر تثقيف شعبي وتسليية واكتساب خبرة. وليس أدل على ذلك من العدد الكبير جداً من الأمثال والأقوال الشعبية المتوارثة التي تعتبر بمثابة نوافذ يطل منها الشاب البدوي على الحياة كي يكتسب الخبرة بالممارسة عبر الذاكرة الشعبية. ومن مثالب الرواية الشفوية أنها تسقط عمداً الماضي القبلي إذا كان عادياً لا مفاخر فيه، أو إذا انتابته هزائم كبيرة فتوصي بالانتقام والأخذ بالثأر ومحو العار. فالحاضر منفصل بأحداث الماضي ويشكل رد فعل عليها، أي أن الرواية الشفوية لا تحاول إبراز الماضي كما حصل فعلاً، بل رؤية ذلك الماضي بعين منفعلة بالحاضر. وهذه المنهجية تقود حكماً إلى «الأدلجة» وسقوط المؤرخ في الحقل الانفعالي للراوي عندما يبني تحليله واستنتاجاته على أساس تلك الروايات.

ولا يقتصر المصدر الشفوي على نموذج المجتمع القبلي، بل يتم استخدامه في المجتمعات المتطورة لدراسة حوار كافة الفئات والطبقات الاجتماعية مع ماضيها القريب وحاضرها المعاش. ومنذ القرن التاسع عشر أي قرن الاستعمار المباشر، لم تعد القبائل في عزلة داخل صحاريها بل ارتبط تاريخها، طوعاً أو قسراً، بالخططات الاستعمارية الأوروبية الهادفة للسيطرة على العالم. فالرواية الشفوية لم تعد تقتصر على أحداث زعماء القبائل وعلاقاتهم ببعضهم البعض، وبالسلطة المركزية أو بالقوى الخارجية، بل اتسعت لتشمل جماهير البدو وآلية التبدلات الاقتصادية - الاجتماعية التي تناولتهم بعد ربطهم بعجلة الرساميل الخارجية، وتحويلهم إلى قوى بشرية ذات موقع ثابت في السكن والإنتاج.

إنَّ المصدر الشفوي يصلح لدراسة المجتمعات البشرية على اختلاف أنواعها، ويطل جماهير الناس في مختلف مواقعهم الإنتاجية والسكنية. ومن أجل معرفة أفضل بتطور المجتمعات البشرية يمكن الاستفادة من المصدر الشفوي لدراسة مختلف العلاقات الاقتصادية - الاجتماعية، خاصة في المجالات التالية:

- النزوح الداخلي من الصحارى إلى الأرياف أو من الأرياف إلى المدن، والهجرة إلى بلدان جديدة، وأثر

ذلك النزوح أو تلك الهجرة في قيام علاقات جديدة بين جماهير السكان .

- العلاقات الداخلية والخارجية بين أفراد العائلة أو بين العائلات ، خاصة في مجالات الزواج والطلاق والعمل المنزلي، والرعي، والتحالفات القبلية، وممارسة السلطة، وتقسيم العمل، وتوزيع الضرائب و...

- دراسة تطور العادات والتقاليد الاجتماعية في كل منطقة، وفي مجمل المناطق، ومقارنتها بالعادات والتقاليد لدى الشعوب المجاورة: عادات الولادة، والوفاة، والأغاني الشعبية، وتربية الأطفال، و...

- دراسة تطور أنواع السكن وبناء المنازل والقرى، وتوسيع المدن، والتجهيزات المنزلية، والمأكل والملبس و... ولا بد هنا من لفت الانتباه إلى ضرورة دراسة تطور السلوك الفردي والجماعي عند الانتقال من حياة البداوة أو الريف إلى حياة المدن، وأثر ذلك في تفكك البنى العائلية والقبلية .

- دراسة تطور أشكال التعليم والثقافة الجماهيرية، وإبراز آلية الانتقال من الكتاتيب والمدرسة التقليدية إلى المدرسة الحديثة، وأثر التربية في الأرياف والمدن، كذلك أثر الصحافة ووسائل الإعلام في تكوين الرأي العام في الأرياف والمدن .

- تطور العلاقات داخل كل طائفة وما بين الطوائف، وذلك عبر مقابلات غنية ومتنوعة تطل مختلف الفئات الطائفية، أو تلك التي تقول بضرورة زوال الطائفية، وإقامة المجتمع العلماني .

- دراسة تطور أساليب العمل النقابي والسياسي، ورسم آفاق تطوره على ضوء ماضيه المباشر، وإبراز نقاط الضعف والقوة في ممارسة الديمقراطية والعمل الحزبي والنقابي، وأثرهما على العلاقات السائدة، وكيف تمثل الجماهير الشعبية في المدن والأرياف القوانين والمراسم التي تصدرها السلطة المركزية، وكيف تنعكس صورة هذه السلطة في وعي الجماهير من خلال قواها العسكرية والإدارية وغيرها .

- دراسة تطور أشكال الملكية وعلاقات الإنتاج، وأنواع الآلات، وشروط العمل، وتطور وسائل النقل والمواصلات، وإبراز آلية ظهور 'أنماط الإنتاج الجديدة، خاصة النمط الرأسمالي، وقيام العلاقات الإنتاجية الجديدة وتعاضلها أو تعارضها مع العلاقات السابقة عليها .

إن المصدر الشفوي لا يقتصر إذاً على المجتمعات القبلية، بل يتعداها إلى جميع المجتمعات على اختلاف فئاتها ومناطق سكنها . ويستفيد المؤرخ كثيراً من المقابلة الشفوية لإبراز التطور الاجتماعي لكنه المسؤول الوحيد عن تقديم المعطيات العلمية، المكتوبة والشفوية، لتحليل قوانين التطور . فالمصادر الشفوية دائماً منفصلة بشخصية رواتها كذلك النصوص المدونة . ومسألة الأرقام بحاجة إلى تدقيق صارم لأنها أرقام تقريبية ومغلوبة، أو متعارضة في معظم الأحيان . وهناك صعوبة كبرى في ضبط التواريخ (السنة، الشهر، اليوم) استناداً إلى المصدر الشفوي غير المكتوب . فليجأ المؤرخ إلى تدقيق صحة الأرقام والتواريخ استناداً إلى مصادر أخرى،

وعدم إيرادها على ذمة راويها . وهذه المنهجية تقود الى ضبط التواريخ والأرقام لأن غيابها أو عدم دقتها يشكل عقبة كبرى في الكتابة التاريخية العلمية للتطور الاجتماعي . وفي هذا المجال يستفيد المؤرخ كثيراً من الوثائق المكتوبة ، والرسائل المتبادلة ، والمذكرات ، لتحديد الأرقام وضبط التواريخ ، وهي مهمة ليست سهلة لكنها ليست مستحيلة . إن الوثائق الشفوية ترفد النص المكتوب بجوانب إضافية غير موجودة فيه وتفتقر إليه في معظم الأحيان . وإذا كانت النصوص المكتوبة تتفاوت من حيث أهميتها وقدرتها على تقديم صورة واضحة عن تطور الماضي من خلال وثائقه ، فإن المصادر الشفوية لا تقل عنها تفاوتاً في هذا المجال فهي تختلف أيضاً باختلاف موقع صاحب النص في عملية التطور الاجتماعي ، ومساهمته المباشرة في صنع الحدث التاريخي .

بعض الاستنتاجات

إنَّ من شروط الكتابة العلمية التاريخية ، إبراز حوار الماضي مع الحاضر . وللمؤرخ مصلحة أكيدة في الحوار مع الناس الأحياء لمعرفة ماضيهم القريب وموقفهم من عملية التطور الاجتماعي التي شاركوا في صنعها . فالحوار الشفوي لا يقل أهمية عن النص المكتوب ، بل كثيراً ما يتجاوز ذلك النص للكشف عن سيكولوجية الأفراد تجاه مواقف تاريخية معينة شاركوا في صنعها فأصبحت ملكاً للتاريخ . وهنا يبرز الإنسان الفرد بكامل صفاته البشرية من ضعف وشجاعة وتردد وتهور . . . وهذه السمات تختفي ، في الغالب ، عند كتابة المذكرات التي تظهر في أواخر العمر . فالمصدر الشفوي محاولة علمية جادة للكشف عن وثائق أو وقائع مباشرة لم يكن صاحبها يرغب في كتابتها أو في إيصالها للناس من جهة ، أو لم تكن الظروف الموضوعية مهيأة لايصالها فتبقى دفينة حتى تأتي المقابلة المباشرة لتنقلها إلى الآخرين . فالمصدر الشفوي يقود إذاً إلى معرفة أكثر عمقاً بالماضي ، وذلك بحث الناس على تدوين انطباعاتهم ومذكراتهم التي غالباً ما تندردون تسجيل . فالمقابلات الشفوية هي ذاكرة الشعوب الحقيقية كما عاشها أبطالها دون أن يدونوها . وهذه الذاكرة تطال مختلف مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفنية وغيرها . ألم تسجل ذاكرة الشعوب ، عبر العصور ، الغالبية الساحقة من العادات والتقاليد والأمثال والحكم والأغاني الشعبية والأشعار التي وصلت إلينا في عصر التدوين وقبل اكتشاف آلات التسجيل ؟ إن التاريخ يكتب يومياً عبر صراع الناس مع الطبيعة ، وعبر صراعاتهم مع بعضهم البعض . فالوثائق المكتوبة لا تقدم إلا نماذج فردية أو مذكرات بعض القادة في حوارهم مع المحيط الذي عاشوا فيه ، فبقيت الحياة اليومية ، بكامل أبعادها وتشعباتها ، بعيدة عن اهتمام الباحثين . وبإمكان المقابلات الشفوية ، وحدها ، انتقاء نماذج اجتماعية شديدة التنوع تجعل من الوثائق المكتوبة أكثر غنى وتكاملاً ، فتقدم قاعدة مادية جيدة لدراسة التطور الاجتماعي .

إن التمييز بين المصدر الشفوي والمصدر المكتوب ، بعد إثبات أصالتها ، يقود إلى حرمان المؤرخ من وثائق أساسية تساعد على فهم أفضل للتطور الاجتماعي . فليس هناك ما يمنع ، منهجياً ، توسيع رقعة الوثائق حتى تطال كافة جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية . بل على العكس من ذلك ، فإن المشاهدة العيانية والانفعال المباشر

بالحدث قادران على شحن الوثيقة التاريخية بالتعبير النفسي الذي تعجز الوثيقة المكتوبة عن إظهاره. فالمصدر الشفوي يتكامل مع المصدر المكتوب ويقدمان معاً صورة متوازنة وأكثر دقة لدراسة التطور الاجتماعي. لكن الفارق النوعي بينهما أن النص المكتوب يبقى محفوظاً في السجلات ويتداوله الباحثون وجميع المهتمين بشؤون المعرفة، أما المصدر الشفوي فيندثر بسرعة إذا لم يتم تسجيله وتحويله إلى نص مكتوب أو وثيقة مسجلة. ومن الملاحظ أن بعض البلدان المتطورة، خاصة الدول الاسكندنافية، تحاول إقامة أرشيف خاص للتسجيلات الصوتية والمقابلات التي تدرس مختلف جوانب الحياة الاجتماعية حيث يحتفظ الناس بمذكراتهم الخاصة وانطباعاتهم حول الفترة الزمنية التي عاشوها. وهذه المنهجية تدون ذاكرة الناس وتجاوزهم في مصانعهم ومتاجرهم وحقوقهم وبيوتهم ووظائفهم، وفي المستشفى والوزارة والبرلمان والجيش والمدرسة وجميع مجالات العمل والسكن. وفي الوقت نفسه يسعى الباحث إلى مقارنة التطور الاجتماعي من خلال شهادات الناس عبر أجيالهم المتعاقبة. وقد أظهرت هذه المنهجية غنىً وثائقياً هاماً في معرفة تطور العادات والتقاليد، وأنماط العمل والإنتاج، وتعدد اللهجات، وتطور اللغات وغيرها. وكانت النتائج مشجعة جداً بحيث بدأ جيل من المؤرخين يهتم بالمقابلات الشفوية ويبني عليها جانباً كبيراً من فرضياته المنهجية لدراسة التطور الاجتماعي.

يضاف إلى ذلك، أن المقابلات الشفوية تكسر احتكار القادة المتنفذين الذين يقدمون مذكراتهم كحقائق تاريخية يعتبرها كثير من المؤرخين وثائق هامة يجب الاعتماد عليها. فالمقابلة الشفوية تفسح المجال أمام جميع الفئات والطبقات الاجتماعية، خاصة المسحوقة منها، كي تدون مذكراتها وتضعها إلى جانب مذكرات القادة والأشخاص البارزين. وهكذا تتحقق سمة أساسية من سمات مدرسة التاريخ الاجتماعي التي بشر بها فولتير منذ عام ١٧٧٤ حين قال:

«لم يكتب التاريخ إلا بشكل سرد قصصي، وأنا كلي رغبة لكتابة تاريخ العادات والتقاليد الاجتماعية، لكتابة تاريخ العلوم والقوانين والأعراف. في كل ما قرأت لم أر إلا تواريخ الملوك، وما أريد هو تاريخ الناس، كل الناس».

إنَّ المصدر الشفوي يرتبط مباشرة بالأحياء من الناس أو بالأحرى بالماضي القريب المرتبط وثيقاً بالحاضر، والفاعل بعمق في تطور المستقبل. وهذه المرحلة الزمنية التي تطل اليوم مليارات الناس الذين يمارسون مختلف الأعمال على امتداد الكرة الأرضية ستغدو بعد حين ماضياً موعلاً في القدم. فالمصدر الشفوي مشر ومفيد وذو أبعاد علمية هامة بدأت تؤثر جذرياً على مستقبل الدراسات التاريخية التي تطل المرحلة الزمنية الحالية، خاصة منذ مطالع القرن العشرين. وليس صحيحاً القول أن المصدر الشفوي لا يصلح إلا لدراسة المجتمعات القبلية حيث تنعدم الوثائق المكتوبة وترتفع نسبة الأمية إلى الحد الأعلى، فالعلاقات البشرية في كل المجتمعات وعلى

امتداد جميع المناطق تستخدم المصدر الشفوي في حوارها اليومي الدائم، وهو نص تاريخي بالضرورة لأنه يتمحور حول نشاط الناس الواعي والهادف إلى صنع تاريخهم بأنفسهم.

كذلك فالعادات والتقاليد والموسيقى الشعبية وغيرها، لم تدوّن بل تناقلها الناس عبر الأجيال، ولا يمكن أن نفهم من خلال نص مكتوب إذا لم تتعهدا رعاية فائقة من الدولة. وقد سارعت بعض الدول، هنغاريا مثلاً، إلى تسجيل موسيقى الفجر وباقي الجماعات المتحركة على أراضيها، وعهدت إلى كبار الأساتذة الموسيقيين بوضع ضوابط للنص الموسيقي المتداول كي يتم تسجيله والحفاظ عليه. كذلك قامت بعض الدول بوضع قواعد وضوابط علمية اللهجات قومية متداولة شفوياً بين بعض الجماعات. ويتم أيضاً تسجيل معظم أغاني البدو الرجل، وإقامة متاحف شعبية للملابس والسلاح، وأدوات الصيد وآلات الموسيقى، والأدوات الزراعية وغيرها.

فالمصدر الشفوي بات يحظى باهتمام علمي متزايد لدى جميع الباحثين، ويعتبره البعض ضرورة أساسية لكتابة تاريخ المجتمعات المعاصرة، القبلية منها والزراعية والمدنية على السواء. وتجدر الملاحظة إلى أن الشعوب التي خضعت للاستعمار الخارجي بحاجة ماسة إلى المصادر الشفوية لكتابة تاريخها على أساس مصادر أقرب ما تكون إلى الحقائق التاريخية، فهذه الشعوب تعرضت خلال المرحلة الاستعمارية إلى قطع ماضيها البعيد عن واقعها الخاضع للاستعمار. وتعرضت أيضاً لتشويه متعمد في إبراز تطورها الاجتماعي القسري الذي رسمه لها الاستعمار مع مشاركة هامشية لبعض القيادات الداخلية المرتبطة به. فليس المهم فقط التفتيش عن الدقة العلمية في ضبط التواريخ والأسماء والأرقام كما وردت في سجلات أرشيف الدول الاستعمارية، بل التفتيش، أيضاً، عن مصادر أساسية جديدة تُستقى من ذاكرة الأحياء الذين خبروا تلك الفترة الاستعمارية وعاشوها على أرض الواقع فتركت في نفوسهم انطباعات لا يمحو. فذاكرة الناس الأحياء ذات أهمية فائقة في إعادة كتابة تاريخ هذه المجتمعات على ضوء مصادرها الأصلية، لا كما دونتها وثائق الاستعمار الخارجي في وثائقه المحفوظة.

ومهما تكن الوثائق المسجلة في أرشيف الدول الاستعمارية أساسية وضرورية لكتابة تاريخ المجتمعات التي خضعت لها، فإنّ هذه الوثائق تشكل بالضرورة وجهة نظر متحيزة ضد تلك المجتمعات، أي أن الغالب ينظر إلى تاريخ المغلوب نظرة دونية، وبكثير من الاحتقار، ويعتبر المرحلة الاستعمارية بمثابة تمدين للشعوب المقهورة، وإدخالها بالقوة المسلحة في دائرة التبعية لرساميله ولغته وحضارته...

فليس المطلوب إذاً، إبراز صورة الغالب والمغلوب، الفقير والغني، الكتاتيب والمدرسة الحديثة، المنزل الريفي والمنزل المدني،.. بل المطلوب إبراز آلية التطور الاجتماعي، والقوى البشرية المستفيدة منها في كل مرحلة من مراحل التاريخ. بمعنى آخر يجب دراسة عملية الإفقار واكتناز الثروات، الحرمان من الملكية وازدياد الملكيات العقارية الكبيرة، التوسع في إقامة المصانع والمؤسسات الضخمة، وازدياد البطالة والجوع...

هكذا، يتم إبراز الصراع الاجتماعي على حقيقته، ومن خلال المصادر الأصلية، وأهمها أقوال المشاركين في ذلك الصراع. تلك هي مهمة الوثيقة التاريخية، مكتوبة كانت أم شفوية، والتي يستخدمها المؤرخ الاجتماعي ويحللها لا لشرح واقع المجتمع فقط، بل ليدعو إلى تغييره أيضاً. وبدون هذا البعد المنهجي المستقبلي ينتفي التاريخ كعلم، ويتحول إلى مجرد تسجيل للأحداث وتراكم لفرضيات تنعت نفسها بالعلم.

مراجع البحث

- BURG, M.: "Problems and methods of oral History", in XVème Congrès.
"International des Sciences Historiques". Bucarest 10-17 août 1980, volume I. Rapports.
- BARRY, Bonbacar: "La chronologie dans la tradition orale du waalo — Essai d'interprétation", in: XVème Congrès, volume I. Rapports.
- PERSON, Yves: "Tradition orale et chronologie", in "Cahiers d'Études Africaines", n° 7, 1962.
- ALAGOA, E: "Oral tradition", in XVème Congrès, volume I. Rapports.
- VANSINA, Jan: "Oral tradition: a study in Historical Methodology"; Chicago 1965.
- VINCENT, Sylvie: "L'Histoire orale montagnaise source pour l'Histoire et discours idéologique". in XVème Congrès — volume I. Rapports.
- VILANOVA, M and WILLEMS, D: "Problems and methods of oral History", in XVème Congrès. Volume I. Rapports.
- BARRER, T: "Oral History in Britain", in XVème Congrès , volume I. Rapports.
- LANCE, David: "Oral History projects in Britain and Ireland", Imperial war Museum. London 1975.
- O'SULLIVAN, Sean: "Oral History". 2 volumes, London 1974.
- FERENC, Glatz: "Oral History and source criticism". in XVème Congrès . volume I. Rapports.
- BULL, E: "Working class ways of life during the early industrialization".
in — XVème Congrès — volume I. Rapports.